وامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت .. وردا وعضت على العناب بالبرد

وأعجبوا بقول الشاعر :

ازورهم وسواد الليل يشفع لى .. وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

وربما لايكون لفظ الصنعة هنا مثيرا على نحو مايفعل قول العقاد ، إننا أمام إزعاج للحواس وأمام احتفال بالعقبات ، ذاك البيت الذى يعنى أننا أمام سدود ولسنا أمام (مراح) أو نشاط . فالشاعر مولع بالحجاب ، والشعر يقف بك عند اللفظ المقصود لا تجوزه إلى المعنى إلا إذا أردت ذلك وتعمدته . وفى البيت الثانى اختلق الشاعر من سواد الليل وبياض الصبح عالما مزعجا للحواس ، الشاعر مولع بالوظائف الحسية ، ولا علاقة بين الليل والصبح من ناحية ، وملكات الروح من ناحية ثانية ، وقد سخّر الشاعر بياض الصبح وسواد الليل ، وأدار بينهما صراعا يراد منه الإثارة ، ولاريب أهمل الشعر الردىء الشفافية ، وبعبارة أخرى كان مانسميه باسم البديع خليقا بإعادة النظر فى ضوء جديد حاوله العقاد ، كان التفريق بين ماهو حسى ، وماهو روحى مهما ، وكان من الغريب فى نظر الأستاذ العقاد أن تقوم فلسفة هائلة تشرع لفزع الحواس ، وتصنع من الفزع زينة ، وليس ثم فرق بين استعمال لفظ الفزع واستعمال لفظ العقبة ، فالفزع إنما يكمن فى اصطناع عقبة من العقبات ، ولايستطيع المرء أن يتجاهل رأى العقاد فى أن تراث البلاغة والنقد كان خادما للعقبات المصطنعة المفزعة لا موحيا بالحرية والطلاقة . لقد كان الربط بين الجمال والحرية أبلغ نقد يوجه الى البلاغة ، ولكن الناس يتعجلون القراءة ، ويظهر أن العقاد « فزع » حين رأى الجميلة الباكية تعامل فى البيت السابق المشهور على نحو من الاستهتار ، كما فزع حين رأى سواد الليل وبياض الصبح يتخليان عن كل شىء فى سبيل المقابلة أو التضاد ، من المؤكد أن العقاد رأى بدع البلاغة مولعا بالتعجب ، حريصا على الإدهاش ، أو الإغراب أو الإفزاع أو إرهاق الحواس .

أنكر العقاد اعتماد الشعر فى منظار البلاغة على الوهم ، كان البلاغيون يبتسرون الحركة والهيئة من مجاليهما ابتسارا يحيلنا على مناظر وهمية ، لنقل إن العقاد أنكر اعتماد الشعر (الردىء) على حاسة الوهم ، وإهمال تنشيط الحاسة الخيالية ، وأنكر المكابدة العنيفة التى تتبدى فى بعض النماذج حتى يحرم المتأمل من الاطمئنان الأولى ، وأعجب البلاغيون بجو الخوارق الذى يعبر عنه الاستاذ العقاد بلفظ إرهاق